الفصل الخامس

المسجد..

obeikandl.com

١

قال عبد الله يخاطب أباه سلمى:

- هل سنأخذهم معنا إلى البيت؟

- لا.

سأل العبادلة الثلاثة بصوت واحد:

لماذا ؟

- سيذهبون مع الملك .. إنهم في ضيافته.

- لكن أحدهم كان عندنا هذا الصباح؟

- سيلبي دعوة الملك .

صاح الصغير:

- دعنا ننتقل إلى مكان آخر .. فإن الناس يحجبون عني رؤيتهم .

obeikandl.com

- أنت ستقف فوق الحمار وستراهم جيدا.

قال الرجل الأعمى الذي وضع يده على كتف الشاب الطويل الأسمر:

- عندما تراهم يخرجون من الكهف أخبرني .. يجب أن أصل إليهم قبل أن يلتف الناس حولهم

- دخل أحدهم إلى الكهف فلم يخرج بعد .

- سمعت كلبا ينبح .

- إنه كلبهم .

- هل خرج الرجل؟

- لا .

- سيكلمهم ثم يخرجون .. سيخبرهم بأن الناس قد جاؤوا للترحيب بهم فيخرجون.

- لعلهم ينتظرون غروب الشمس ثم يخرجون.

- لماذا ؟

- لأنهم لم يتعودوا عليها منذ مئات السنين!

قالت المرأة البدينة السمراء تخاطب زوجها الأبيض النحيف :

- أنا تعبت .. وجعت .. تعال نجلس هنا .. لا.. هنا..

ألم تأكلي قبل أن نخرج من البيت .. اصبري قليلا.

- الأطفال أيضا جاعوا.. تعالوا.. اجلسوا..

نشرت منديلا أحمر على الأرض ، ووضعت فوقه الطعام وجلست تأكل وهي تقول:

- كلوا.. بسم الله.. هل نموت من الجوع.. كيف صبروا كل تلك المدة بدون طعام.. تعال كل شيئا.

- كلي أنت وأطفالك.. أما أنا فسأقف هناك أنتظر .. انظري.. هناك.. فإذا انتهيت من الطعام فناديني!

- يا رجل.. يا نحيف.. ارحم نفسك.. البدانة هيبة للرجل والمرأة.

- احتفظي بنصائحك يا مهيبة.

- لا أستطيع الانتظار أكثر .. دعنا نعود .

- نعود بعد أن وصلنا إلى هنا؟

- أنا تعبت.. تعبت من المشي أولا ثم من الوقوف ثانيا.. سأقع على الأرض!

- اجلسي

- أجلس.. كيف أجلس ؟

- اجلسي فوق العشب مثل بقية الناس .

انظري كيف ينتشرون .. كل النساء والأطفال يجلسون فوق العشب.

- يتسخ ثوبي.

- العشب نظيف .

- كلهم يجلسون ويأكلون.. أنت لم تسمح بأن آخذ رغيفاً واحداً.

- انظري .. تلك صديقتك جارة أطفالها.

- أين؟

- هناك.. قرب الرجل صاحب الحمار. اذهبي فكلي معها.

- ماذا ستقول عنا؟

- أين هم الآن ؟

- داخل الكهف.

- هل أنشأوا لهم بيوتاً داخل الكهف؟

obeikandi.com

- لا

- كيف عاشوا كل تلك المدة؟

- كانوا نياماً .

- مائة سنة؟!

- أكثر من مائة سنة؟

- نعم

- هل نستطيع أن ننام مثلهم؟

- لا.

- لماذا ؟

- إنها آية من آيات الله .. أراد الله تعالى أن يريها للناس ولهم.. لكي يعلم الناس ..

قاطعه سائلاً:

- ماذا يعلم الناس؟

- لكي يعلم الناس أن الله تبارك وتعالى قادر على أن يبعث الناس يوم القيامة .

- كل الناس يبعثون ؟

- كلهم .

obeikandl.com

نظر الرجل إلى صاحبه نظرة تنطوي على سؤال يخصه ففهم قصده وأشار بالسبابة إلى صدره وهو يقول:

- حتى أنا .. وأنت!!

- هل ذهب الملك إليهم؟

- إنه يقف هناك .

- لو كنت ملكا لتقدمت نحوهم .

- عندما تصبح ملكا.. افعل ما تشاء.

- وأنت؟

- لا أريد

- إنهم يتكلمون لغتنا.. أليس كذلك؟

- بلى .. ولكن لهجتهم تختلف.

- هل أستطيع أن أكلمهم؟

- لم لا

- أنت قلت إن لهجتهم تختلف.

- الاختلاف يكون في طريقة لفظ الكلمة وأدائها.. إطالة الكلمة.. بترها .. تقديم بعض الحروف أو تأخيرها.

obeikandl.com

- فهمت.. إنهم إذا أرادوا أن يقولوا: رغيف

قالوا: فريغ. وإذا أرادوا أن يقولوا : عسل قالوا : لسع.

- ماهذا ؟! .. أنت غيرت المعنى !

الرغيف يدل على الخبز .. والفريغ يدل على الشيء الفارغ. والعسل معنى .. ولسع معنى آخر.

- أنت قلت!

- سيخرجون بعد قليل وتكلمهم وتعرف معنى الاختلاف في اللهجة .

مال الوزير على أبي مجدّ الاسكندري وسأله بهمس:

- هل تظن أنهم سيخرجون ؟

هز الاسكندري رأسه وأجاب بصوت خفيض:

- لو كان في نيتهم الخروج لخرجوا .

قال الوزير ، وقد التفت إلى الملك فرآه يتململ :

- أخشى أن يكون الفتى قد فشل في إقناعهم .. فهربوا .

تبسم الملك .. وقد مل الانتظار.. فقال:

- نحن نقف أمام الكهف.

obeikandl.com

تمتم الوزير وهو يشير بيده:

-هذا إذا لم يكن للكهف منفذ آخر .

- أتظن ذلك؟

أكد الوزير كلامه:

- ظنا يشبه اليقين .

- لقد كان الكلب ينبح

- ولكنه لم يفعل ذلك منذ دخل الكهف.. إنه لم يخرج.

تنهد الملك وقال .. وهو يخشى أن يكون الوزير على صواب:

- لعلك على حق.

قال الوزير مقترحا:

- أليس الأفضل أن نرسل رجلاً يستطلع الأمر ..

لقد مضى وقت طويل على ذهاب الشاب إلى أصحابه ثم إن الشمس قد بدأت تنحدر نحو المغيب.

هز الملك رأسه مقتنعا:

- اختر رجلا كيّساً.. عاقلاً .. يحسن التصرف.. ليقف قريباً من الكهف ثم ينادي ثلاث مرات .. ولا يدخل قبل أن آذن له .

- سأرسل الاسكندري

- نعم .

obeikandl.com

٢

هبت نسمة عطرة من جهة الكهف، كأن رائحتها المسك الأذفر ! وانحدرت الشمس بتراخ نحو الغروب ومدت أشعتها الوردية بصورة متوازية مع باب الكهف.. ليست مواجهة له! فكانت نظرتها الفاترة تدل على أنها قد جهدت من طول المسير!!

اتجه الاسكندري.. ببطء.. نحو الكهف . العشب الأخضر يمتد إلى سفح الجبل .. بل يتشبث بالجبل .. بل يتوزع بين الصخور الرمادية والبيضاء . وقرب عين الماء حطت بعض العصافير .. فلما اقترب الاسكندري أفرقه السكون.

وقف قريباً من الكهف ونادى بأعلى صوته:

- يا أصحاب الكهف .. يا أصحاب الكهف . لم يسأل الفتى الذي قابل الملك عن أسمائهم .. أو عن اسمه.

انتظر قليلا ثم صاح مرة أخرى:

- يا أصحاب الكهف رجل كان يرعى الغنم ..

عاد ثالثة:

- يا أصحاب الكهف.. أيها الراعي .

انتظر بعدها لحظات ثم رجع..

حدث في تلك اللحظة ما لم يكن في الحسبان! فقد صاح رجل من خلف الناس بأعلى صوته.. عندما رأى الاسكندري عائدا:

- خرجوا.

فاندفع الأعمى ، وقد ترك صاحبه. . وهو يصيح:

- ادعوا الله أن يرد إلي بصري.

وركض الناس خلفه بلا روية..

وترك النساء الطعام ونهضن مسرعات.

وذهلن عن أطفالهن!!

كانت موجة عارمة.. جعلت الجنود يتراجعون إلى الخلف بلا نظام.. وسقط بعض الناس فوق بعضهم! ولم تقف الموجة إلا قريبا من الكهف.

ثم عادوا إلى الخلف بعد أن شعروا بخطأ فعلتهم. وكانت عودتهم بصورة بطيئة ومتمهلة.. وكان بعضهم يضحك لأنه انخدع بصيحة الرجل .. ونهض الأعمى يتوجع وقد أصابه الكثير من أرجل الناس.. وكان صاحبه الشاب قد أدركه وأعانه على النهوض .. ولكنه فقد عصاه.. فقد طارت من يده عندما سقط على الأرض.

وبينما كان الناس يتراجعون بلا نظام.. كان سؤال واحد يلح على الملك:

- متى يخرجون؟

ثم قرر أن يتقدم بنفسه إلى الكهف.فمن غير المعقول ترك الناس يتصرفون على هواهم .

وتقدم الملك..

يتبعه قائد الجند .. والوزير.. ورجال المملكة .. وأبو مُجدّ الاسكندري.

وارتقى الحجارة البيض التي أمام الكهف .

وتقدم خطوات.. ثم التفت إلى الوزير وقال :

- نادهم .

أمام ذلك الرجل ، ستة رجال جلسوا على شكل دائرة عرف من بينهم الشاب الذي كان في المدينة .. وكان مستنداً إلى زميله..

أما الراعي .. فقد تمدد على الأرض .. وتمددت العصا إلى جانبه لم تفارقها يده.

جميع الرجال كانوا في هيئة حسنة.. ولباس حسن عدا الراعي.. الذي كانت ثيابه قديمة .. رثة.. ابتسامة جميلة.. هادئة.. رضية.. كانت ترتسم على وجوههم.. كلهم!

لم يستطع الملك .. ولا الوزير .. لم يستطع واحد ممن دخلوا الكهف مع الملك أن يقرأ الكتابة التي كانت قد نقشت على الجدار بسبب الظلام.

أجهش الاسكندري بالبكاء.. وتبعه الوزير .. وتمالك بقية الرجال أنفسهم.. واستطاعوا التغلب على دموعهم.

استمر الموقف الحزين لحظات.. ثم خرج الاسكندري ليعلن للناس : لقد ماتوا!!!

٤

وغابت الشمس..

وسجل القرآن الكريم ما حدث بعد ذلك:

(إذ يتنازعون بينهم أمرهم.. فقالوا: ابنوا عليهم بنياناً .. ربهم أعلم بهم. قال الذين غلبوا على أمرهم: لنتخذن عليهم مسجدا)

*　　*　　*

obeikandl.com